١٥ - تاريخ العرب الأدبي

للأستاذ رينولد نيكلسون

ترجمة حسن محمد حبشي

ومن المحتمل أن يكون فجر العصر الذهبي للشعر العربي هو هذه السنوات العشر الأولى من القرن السادس بعد الميلاد. فحوالى هذا الوقت كان قد اشتد ضرام حرب البسوس التي سجلت سنيها عاما فعاما أشعارُ معاصريها إبان ذلك الوقت، كما أن أول قصيدة عربية أنشئت - كما تذكر أخبارهم - قصيدة نسج بردتها المهلهل بن ربيعة التغلبي في رثاء أخيه كليب الذي كان مصرعه سببا في إشعال نار الوغى واشتجار رماح قبيلتي بكر وتغلب. وعلى كل حال ففي خلال القرن التالي لهذه الحادثة نجد كثيرا من المنشدين في جميع أصقاع شبه الجزيرة العربية ظلوا مقتفين لهجة شعرية واحدة في معانٍ مشتركة ظلت محترمة لم تمسسها يد التغيير والتبديل حتى نهاية العصر الأموي (٧٥٠ م) ومع ذلك فقد سادت الأدبَ أيام الخلافة العباسية روح جديدة سرعان ما ثبتت قوائم سلطانها الذي ظل على قوته حتى اليوم تقريبا، وكان هذا النمط يتمركز في القصيدة [١] التي تعد الصورة - أو بتعبير أدق - المثل الأعلى لما يمكن تسميته بالعصر الرائع للأدب العربي. وتختلف القصيدة في عدد الأبيات التي تتألف منها، لكنها قلما تقلّ عن خمسة وعشرين أو تربو على المائة، ولا يكون التصريع إلا في المطلع، ثم تجرى القافية على روىّ واحد حتى نهاية القصيدة. أما الشعر المرسل Blank Verse فغريب عن العرب الذين لا يرون الإيقاع حلية وتنميقا أو تقييدا منهكا بل يعدونه روح القصيدة وجوهرها. وأغلب ما تكون القوافي رقيقة فيها أنوثة كقولهم سخينا، تلينا، مهينا، مخلدي، يدي، عوّدي، رجامها، سلامها، حرامها. وإنّ تذليل عقبات القافية الواحدة ليتطلب مهارة فنية كبرى حتى في لغة يكون من أشد خصائص تكوينها تعدد القوافي وكثرتها، وإن أطول المعلقات لأقصر من مرثية جراى، أما من ناحية الوزن فللشاعر الحرية في اختيار أي بحر إلا الرجز الذي يعد أتفه من أن يستعمل في القصيدة. بيد أن حريته لا تصل إلى اختيار الموضوعات أو إلى طريقة استغلالها بل نرى عكس ذلك، إذ أن مجرى أفكاره مقيد بشروط قاسية لا يستطيع الفكاك منها، وفي ذلك يقول ابن قتيبة: «وسمعت بعض أهل العلم يقول إن مقصد القصيد إنما ابتدئ فيها بذكر الديار والدمن والآثار، فشكى وبكى وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازل العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه المدر لانتجاعهم الكلأ، ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الشوق وألم الوجد والفراق وفرط الصبابة ليميل نحوه القلوب لأن النسيب قريب من النفوس لما جعله الله في تركيب العباد من محبة للغزل والف للنساء، فليس يكاد يخلو أحد من أن يكون متعلقا منه بسبب، فاذا علم أنه استوثق من الاصغاء اليه عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وانضاء الراحلة، فاذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء بدأ في المديح فبعثه على المكافأة وهزه على السماح وفضله على الأشباه [١]».

وهناك مئات من القصائد لا تخرج عن هذا الوصف الذي لا يجب على كل حال أن يعتبر النموذج الثابت على الدوام إذ يتجاوز الشاعر في بعض الأحيان عن المقدمة الغزلية وخاصة في المراثي، وإذا لم تقده على الفور إلى الغرض المنشود تلاها وصف دقيق صادق لبعير الشاعر أو حصانه الذي يحمله خلال القفار في سرعة الظبي النافر أو الحمار الوحشي أو الظليم. وشعر البدو يفيض بالدراسة الجميلة لحياة الحيوان ووصفها [٢]؛ ولا شك أنهم كانوا يولون المديح همهم وعنايتهم، كما كان أحب شيء إلى نفوسهم. وقد استطاع الشاعر أيام الجاهلية أن يرضي نفسه فلم تكن القصيدة وحدة قائمة بذاتها، ولكنها أشبه ما تكون بمجموعة

(١) راجع التعاريف المختلفة لكلمة قصيدة عند:
Jacob: Studien in Arab. Ditchern, Heft III, P. 203.
Ahlwardt: Bemerkungen uberdie Dechtheit der Alten Arab. Gedichte, P. 24. seq.

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبعة ليدن ١٩٠٢) ج ١ ص ١٤ س ١٠ وما يليه.

(٢) نذكر Funf Mo'allaqat (المعلقات الخمس) ص ٢ وما يليها ونذكر ملاحظة دقيقة تصور الطبيعة الصناعية لهذا الشعر تلك هي أن بعض حيوانات نجد مألوفة ومعروفة عند العرب كالكلب والذئب والأرنب قل أن يشار إليها أو يرد للموصوف في شعرهم. ومن الواضح أن ليس من سبب لهذا سوى أنها لا تدخل ضمن ما تعارفه عليه.

صور رسمتها يد واحدة أو كما يقول الشرقيون مكونة من لآلىء مختلفة الحجم والقيمة ، ثم ألف منها عقد

* * *

قد يمكن وصف الشعر العربى القديم بأنه نقد تصويرى للحياة الجاهلية وأفكارها ، إذ نجد الشاعر فى هذه البيئة بعيداً عن التكلف والميوعة والبهرجة . وليست تسمية مجموعة أبى تمام « بالحماسة » من قبيل الصدف . أو لأن ذلك عنوان من عناوين الكتاب أو فصل من فصوله يشغل قرابة نصفه ، بل لأن الحماسة تشير إلى أجل فضيلة عظمها العربى ، فقد امتدح البسالة فى القتال والصبر عند اشتداد البلاء ، والجد فى طلب الثأر ، وحماية الضعيف والازدراء بالأهوال ، أو كما قال تيسون « كافح واطلب تجد ولا تخضع »

ومن صور المثل الأعلى للبطل العربى الشنفرى الأزدى ، وقرينه فى الغزو والسلب « تأبط شراً » فقد كانا قاطعى طريق طريدين ، كما كانا شاعرين مبدعين ، أما عن الأول فيروى أن بنى سلامان اختطفوه طفلا وربوه فيهم ، ولم يعرف أصله حتى نما عوده فأقسم لينتقمن من خاطفيه وعاد إلى قبيلته الأولى ، ونذر أن يفتك بمائة رجل من بنى سلامان فقتل ثمانية وتسعين ثم نجح مطاردوه فى أسره ، وبتر أحدى ذراعيه فى دفاعه عن نفسه فشد على أعدائه بيده الأخرى وقتل واحدا منهم . ولكنهم تكاثروا عليه فغلب على أمره وقتل وقد بقى على إيفائه نذره رجل واحد ، وبينما كانت أقحوفته ملقاة على الأرض مر بجوارها رجل من أعدائه فركلها بقدمه فدخلت فيها شظية من جمجمته ونغل الجرح ومات الرجل ، ومن ثم قتل المائة[1] ، وفى قصيدته الموسومة بلامية العرب يذكر طرفاً من صور بطولته وبسالته وعناء حياة السلب :

وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى
وفيها لِمَن خاف القِلى متحوَّلُ
لَعَمْرُكَ ما بالأرض ضِيق على امرئ
سَرَى رَاغباً أو راهباً وَهْوَ يعقِلُ
ولى دونكم أهلون سيد عَمَلَّس
وأرقط زُهْلول وعرفاء جَيْألُ
هُمُ الأهلُ لا مُسْتَوْدَعُ السِّر ذائع
لديهم ولا الجانى بما جَرَّ يخذَلُ
وكلّ أبىّ باسل غير أنّنى
إذا عَرَضَتْ أولَى الطَّرائِد أبسَلُ
وإنْ مُدَّت الأيدِى إلى الزَّادِ لم أكن
بأعْجَلِهِمْ إذْ أجْشَعُ القَوْمِ أعْجَلُ
وما ذاك إلا بسطة عن تفضل
عليهم وكان الأفضل المتفضّل
وإنى كفانى فقدُ من لستَ جازياً
بحسنَى ولا فى قربه متعلّل
ثلاثة أصحاب : فؤاد مشيع ،
وأبيض إصليت ، وصفراء عَيطلُ
هتوف من الملس المتون يزينها
رَصائع قد نيطت إليها ومحمل
إذا زال عنهـــا السهم حنَّت كأنها
مرزّأة ثكلى ترن وتعوِلُ [2]

ثم يأخذ فى الكلام عن قبيلته التى تلفظه لفظ النواة و تتركه هائما على وجهه حينما يتكالب عليها الأعداء مطالبيها بثأر تلك الدماء المهراقة ويقول :

فلا تقبروننى إنّ قَبرى مُحَرَّمٌ
عليكم ولكن أبشِرى أمّ عامرٍ
إذا احتملوا رأسى فِى الرَّأسِ أكثرى
وَغودِرَ عِنْدَ الملتقَى ثَمَّ سَايرى
هنَا لك لا أرْجُو حياة تسرُّنى
سَجِيسَ اللّيالى مُبْسَلاً بالحرائرِ [2]

(1) Sir Charles Lyall : Ancient Arabian Poetry, P. 83.

(١) يجد القارىء هذه القصيدة كاملة بالعربية فى كتاب دى ساسى المسمى « كتاب الأنس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور من منظوم ومنثور » وترجمها بنفسه إلى الفرنسية فى Chrestomathie Arabe ص ٢٢٧ وما يليها ، وكذلك ترجمها إلى الانكليزية شعرا G. Hughes (لندن ١٨٩٦ م) وقد اشار نلدكه إلى كثير من التراجم لها فى Beitrâge Zur Kenntniss d. Poesie der Alten Araber, P. 200.

(٢) الحماسة ١٤٢

أما ثابت بن جابر بن سفيان فهو من قبيلة « فهم » ويسمى تأبط شرا ، وسبب ذلك أن أمه أبصرته ذات يوم خارجا من الخباء إلى الخلاء متأبطا سيفاً فسألها أحدهم « أين ثابت ؟ » فقالت: « لست أدرى ، لقد تأبط شرا وخرج » وهناك قول آخر بأنه قد خرج فى بعض أموره فالتقى بغول فشد عليه وجزّ رأسه ثم حمله إلى بيته على هذه الحال ، فقيل له تأبط شرا . وإن الأبيات[1] التالية التى يصوّر بها خاله شمس بن مالك لكفيلة بتصوير طبيعة الشاعر ونفسه تماما وهى انعكاس لعاداته :

قليلُ التَّشكى لِلْمهم يصيبُهُ
كثيرُ الهوى شتى النَّوَى والمسالك
يَظل بِموْمَاة ويمسى بغَيرها
جَحيشاً ويَعْرَوْرى ظهُور المهالك
ويَسْبق وفْدَ الرِّيح من حيث ينتحى
بمُنْخَرِقٍ مِنْ شده المتَدَارك
إذا حاصَ عَيْنيه الكرى النَّوْم لم يزل
له كالِئٌ مِنْ قلب شَيْحان فاتك
ويجعلُ عينيه ربيئة قلبه
إلى سلةٍ من حدِّ أخلق صائك
إذا هزَّه فى وجه قِرن تَهللتْ
نَواجِذ أفْوَاهِ المنايا الضَّوَاحِكِ
يَرَى الوَحشة الأنس الأنيس ويهتدى
بحيث اهتدت أمُّ النجوم الشوائك

وهذه الأبيات السالفة تصف فى دقة وتلم كل الالمام بالفضائل الأولية العربية من شجاعة وخشونة وبأس . وهنا نرى لزاما علينا أن ننتقل بالقارىء إلى ناحية بعيدة بعض الشىء عن الناحية الأدبية ، تلك هى الناحية الخلقية التى تعد من الأسس المهمة التى قام عليها كيان المجتمع الوثنى الذى ليس لدينا من مرجع عنه سوى الشعر الجاهلى . لم يكن للعرب قانون مكتوب أو مرجع دينى أو أى شىء من هذا القبيل ، بل كان هناك ثمة قوة أجل من هذه وأعلى شأنا وأنفذ تأثيراً فى نفوسهم ، تلك هى « الشرف » ، ولكن ما هى خصائص الشرف البارزة وميزاته الواضحة التى تنطوى عليها فضيلة المروءة كما كان يفهمها عرب الجاهلية ؟ لقد أشرنا إلى أن شجاعة العرب تشبه تمام الشبه شجاعة الأغريق ، يولدها ثوران النفس ولكنها تتلاشى إزاء الابطاء أو التراخى[1] ومن ثم كان البطل العربى رجل جلاد يقتحم الأهوال ، ويزدرى الأخطار ، كثير الفخر كما يظهر لنا ذلك من معلقة عمرو بن كلثوم . وإذا رأى أن ليس لما يفوته بالهرب خطر عظيم أسرع غير مليم ، ولكنه يحارب ويناضل حتى آخر رمق فيه ذابّا عن نساته اللائى كنّ إذا جد الجد واشتبكت الرماح ، صحبن القبيلة ووقفن خلف صفوف القتال :

لما رأيتُ نِسَاءنا يفْحَصن بالمعزاءِ شدَّا
وبدَتْ لميسُ كأنَّها بَدْرُ السماء إذا تبَدَّى
وبدَتْ محَاسنُها التى تخفَى وكان الأمْرُ جَدَّا
نازَلْتُ كبْشَهُمو ولمْ أرَ مِنْ نِزَال الكبش بدًّا[2]

وكانت الديمقراطية دستور القبيلة يتولى الإشراف على تطبيقه شيوخها الذين استحقوا السيادة بما لهم من شرف النسب ، ونبل الأخلاق ، وسعة الثروة ، وحكمة الرأى ، وكمال التجربة[3] كما أشار إلى ذلك شاعر بدوى [4] بقوله :

لا يَصْلُح الناس فوْضى لا سراة لهم ولا سَرَاة إذا جُهَّالهم سادوا
والبَيْتُ لا يبتَنى إلا لهُ عمدٌ ولا عِمَاد إذا لم ترْسَ أوتادُ
وإن تجمع أوتادٌ وأعمدة
يوماً فقد بلغوا الأمر الذى كادوا[5]

« يتبع »

حسن عبشى

(١) الحماسة ٤١ - ٤٢ وقد ترجمها إلى الانكليزية :
Sir Ch. Lyall : Anc. Ar. Poetay, P. 16
A. B. Davidsen : Biblical Literary Essays, P.263

(1) Hahaffy : Social Life in Gree, P. 21

(٢) الحماسة ٨٢ - ٨٣ ، والأبيات للشاعر عمرو بن معديكرب احد فرسان الجاهلية المغاوير ، اعتنق الاسلام وجاهد فى صفوفه إبان حرب القرس

(٣) نزيد على ما ذكره نيكلسون ما رواه المبرد من ان معاوية سأل عرابة بن أوس بن قيظى الأنصارى عما كان من شانه حتى بلغ مرتبة الرياسة ، فقال : « أعطيت فى نائبتهم ، وحلمت عن سفيههم ، وشددت على يدى حليمهم ، فمن فعل فعلى فهو مثلى ، ومن قصر عنه فأنا أفضل منه ، ومن تجاوزنى فهو أفضل منى » (الكامل ص ٧٥) وكذلك الفصل الأول من ترجمتنا لكتاب « تاريخ العرب باسبانيا » لسوزى . (المترجم) (٤) هو الأفوه الأودى (المترجم)

(٥) Delectus للمؤلف ص ٤ س ٨ - ١٠